أعلام ومبدعون 61

طبيبُ الرُّوح والجسد
وجيه البارودي

د. ريما الدياب

وزارةُ الثَّقَافة
الهيئة العامّة السُّوريّة للكتاب
مديريّة منشورات الطِّفل

دمشق 2022

أصـوات الرعد تملأ المكان، وتهـز النوافذ، ورنين صوت المطـر يعزف موسـيقا الحـب والحياة. في ظل هـذه الأجواء الشـتوية، اجتمعت الأسـرة مسـاءً عنـد المدفـأة: الأب والأم والابن الوحيد سـامر الذي قاربَ الثانية عشرة من عمره، وفي حوار دافئ قالت الأم:

أميـري الصغير! كـم أرى فيك ذاتي! كم أتمنـى أن تحقق كل ما لم أستطع تحقيقه!

أجاب سامر ببرود: نعم، نعم، سأصبح طبيباً.

ردّت الأم حائـرةً: لا، يـا صغيـري! ليس حلمـي أن تصبح طبيباً.

ابتسـم سـامر، وقال: أمي! أنت تقولين دائماً: متى ستكبر، وتُـحقّقُ نجاحاً؟

قالـت الأم: نعم، يا بني! لكنْ ليس كلّ نجاح يرتبط بمهنة. أنا حقاً أتمنى أن تصبح طبيباً، لكنْ أريد أن تكون إنساناً مثقفاً ونبيـلاً. أريد أن أفتخر بأننـي أنجبت رجلاً بارعاً في مجالات الحياة كلها.

هنا التفت الأب قائلاً: عزيزي سـامر! اقرأ الشـعر العربي، وانهل منه.

قال سامر: لا، يا أبي! لا أريد. أريد أن أصبح طبيباً فقط.

قال الأب: ولِـمَ لا يا بني؟! ألم تسمع بوجيه البارودي؟

أجاب سامر: مَـنْ وجيه البارودي؟

قال الأب: سـأخبرك يا بني! في عالمنـا العربي قرأنا كثيراً عن أطباء شـعراء، لكنْ قلّـمـا قرأنا عن طبيب شاعر، وشاعر طبيب في الوقت عينه. لمحنا مهنة الطب في شـعره، ولمسـنا في طبِّهِ رُوحَ الإبداع والشاعرية والذوق والأدب. نعم، يا بني! الأدب يُهـذّبُ النفـوس، فها هـو ذا وجيه البـارودي، الطبيب الشـاعر، عَـلِـمَ معنى الحياة، وتمكّن من رؤية الأشـياء عاريةً من الأقنعة كلها، إذ عاينَ الناس في الأمراض، وشهد سكرات المـوت، فعلم معنى الحياة، وعلم أن نبضةً واحدة تفصل بين

الموت والحياة، فعمد إلى غذاء الروح والحياة بشعر مفعم بروح التجربة الصادقة والخبرة الإنسانية المعمقة، فقدّم شعراً لا نظير له، وعلى الرغم من قلّة شعره، فإنّ ما تركه لنا من أشعار يشي بموهبة متقدة وبقريحة متفتحة خلّدت اسمه إلى يومنا هذا. لقد خُلِّدَ اسمُه بنضاله الاجتماعي، وبشعره العذب النديّ، وبطبّه المتفوق، وبخبرته الطويلة، وبحُبّه العجيب، وهذا ما أشار إليه بقوله:

أنا حيٌّ بمنجزاتِ نضالي
وبشِعري الذي يظلُّ طريّا
وبطبّي، وخبرتي، وبحُبّي
سوفَ أبقى مُخلّداً أبديّا

اسـمُهُ وحياتُه

قال سـامر: أرجوك يا أبي! أكمل! أهو شاعرٌ أم طبيب؟ لم أفهم.

قـالَ الأب: انتظر يا بُـنيّ! سـأُعرِّفُكَ إيّاه. هو وجيه بن عبد الحسيب البارودي. وُلدَ في مدينة حماة في الأول من آذار عام ١٩٠٦م، وتُوفّـيَ في الحادي عشـر من شـباط عام ١٩٩٦م. ينتمي إلى أسرة موسرة تُعدّ من طبقة الوجهاء، سواء من جهة والده عبد الحسـيب البـارودي المزارع والتاجـر، أم من جهة والدته ذات الوجاهة الدينية وأهلها أصحاب الملكية الزراعية الكبيرة. درسَ في المدارس التبشـيرية في لبنان. تلقّى تعليمه الابتدائـي في مدرسـة «ترقّي الوطن» في حمـاة، ومما أثّر في

ثقافتـه وصقـل شـخصيته أن المعلمين في مدارسـه كانوا من أسـاتذة اللغـة العربية، وفي هذه الحقبة شـاهد آثـار المجاعة التـي عصفت ببلاد الشـام، وعـاش أحداث الحـرب العالمية الأولـى التي انتهت، وهو في الثانية عشـرة مـن عمره، بعد أن أوقفته وغيرَهُ عن متابعة الدراسـة، وهذا ما أشـار إليه الشـاعر وليـد قنباز في تقديمـه لديوان البارودي «سـيّد العُشّـاق»، إذ يقول:

«وُلِـدَ وجيه البارودي مطلع القرن العشـرين، يوم السـبت: ١/ ٣/ ١٩٠٦م فـي مدينـة حمـاة، ورافـقَ هـذا القـرنَ حتـى نهايتـه، فعـاش الحربيـن العالميتين والمجاعـات والحروب والأحـداث التي عصفـت بالمنطقة، لكنّهُ نأى بنفسـهِ عن كلِّ تلك الأحـداث، واكتفـى بالعالم الـذي اختارهُ لنفسـهِ: عالم الشِّعر والمرأة».

سألَ سامر: وكيف تعلّـمَ، وقد كانت البلاد في حالة حربٍ وفقر؟

أجاب الأب: في الثالثة عشـرة من عمره أرسله والده ليتابع دراسـته الإعداديـة والثانويـة والجامعيـة في الكلية السـورية

الإنجيليـة (الجامعة الأميركية) فـي بيروت، وكان انطلاقه مع نهايـة عـام ١٩١٨م، وقد مكـث في رحاب هـذه الكلية أربعة عشـر عاماً، شـملت الدراسـة الإعدادية والثانوية والجامعية، فقضى فيها فترة تحصيله العلمي، وتخرّج طبيباً عام ١٩٣٢م.

وقفَ سامرٌ، وقد ألـحَّ عليه سؤالٌ مُـهـمّ:

وكيف لهذا الطبيب أن ينهل الشعر ويعرفه يا أبي؟!

أجـاب الأب: في مكتبة الجامعـة، اطلع على أمهات كتب التـراث، وحفظ كثيـراً من الشـعر العربي في العصـور كلها، واطلع على أنماط من الشـعر الغربـي، وراح منذ ذلك الوقت يكتب الشعر متأثراً بما قرأ.

هـزت الأم رأسـها قائلـةً: عزيـزي سـامر! لقد أثبـتَ هذا الإنسـان تفوُّقَـه ونجاحه في مختلف أنـواع المعرفة والعلوم، فعُـرِفَ بحدة الذكاء والإرادة لإثبـات ذاته، إضافةً إلى موهبته الفطرية الشـعريّة التي أسـهمت في تفوّقه وتميزه. هيا يا بني! يكفي اليوم ما سمعته. اذهب لتنام، وغداً نكمل الحديث.

دخل سامرٌ غرفته، وتمدّد على السرير شاردَ الذهن، وأفكارٌ عـدّة تدور في رأسـه: لم أكـن أعلم أنّ في إمـكان الطبيب أن

يكون شاعراً، ولم أسمع بشاعر طبيب. كيف لإنسان أن يكون ناجحاً في أكثر من مجال في حياته؟! كم هذا الشخص رائع! من المؤكد أنّ شـخصية هذا الطبيب تحمل خفايا عدّة جعلته يُـخلَّد في عقول الناس.

ثم خرج سـامرٌ من الغرفة مُنادياً: أبي! أمي! أريد أن أعرف المزيد عن هذا الطبيب.

ضحكـت الأم، وقالت: كنت أعلـم أن فضولك لن يدعك تنام. ماذا تريد أن تعرف؟

سأل سامر: هل كان هذا الطبيب غنياً؟ أين كانت عيادته؟

أجـاب الأب: لقـد افتتح عيادتـه الطبية الخاصـة في مدينة حماة عام ١٩٣٢م بعد عودته من لبنان، واقتنى في تلك الفترة درّاجـةً عاديّة اسـتخدمها لزيارة مرضاه، ثم تطـوّرت الأمور، فاقتنـى درّاجـةً نارية بقيت معـه حتى أواخـر الأربعينيات من القرن العشـرين، ثم اقتنى سيارةً خاصّة به. مارسَ مهنة الطب منذ عام ١٩٣٢م إلى أن توفي عام ١٩٩٦م، أي أنه حقّق رقماً قياسـياً في الاستمرار في ممارسة الطب بما يزيد على الستين عامـاً، ومن هنـا عُـدَّ صاحبَ مُدّة طويلة فـي العمل الطبي في

العالـم، وقد برع في مهنته، وامتدت شـهرته إلـى مدينة حماه وريفها، وظل يمارس الطب إلى أن أنهكه المرض.

تابعـت الأم الحديـث قائلـةً: هـل تعلـم يا سـامر أن وجيه البارودي كان رجلاً قوياً وعصامياً في حياته؟ نعم، إن العزيمة والتصميـم والإرادة جعلت منه إنسـاناً قوياً ومثالياً. لم يسـلم مـن مصائب الدهر، ولعلَّ أهم ما أثّر فـي حياته أنه فُجعَ بوفاة والدته عام ١٩٢٣م، وهو لا يزال في السابعة عشرة من عمره، وقـد تـزوّج والدُه بعـد رحيلها، فعـاشَ وأخواته بلا سـند ولا معين، وقد صوّر ذلك بقوله:

خرجـــتُ أشـــقُّ طريقَ الحيـــاة
بسيـــفِ اليقيـــن ودرعِ الثبـــات
وحـــيـــداً أنـــاضـــل، لا والـــدٌ
معيـــنٌ، وأمّـــيَ في الهـــالكـــات

وأكمل السـنتين الأخيرتين في الجامعة، معتمداً على تبرُّعٍ وهباتٍ من الأصدقاء.

وقد فُجعَ بوفاة زوجته، وهي في الستين من العمر، بعد حياة

زوجية دامت خمسةً وأربعين عاماً، كما فُجعَ بوفاة ثلاثة من أبنائه العشرة، فانطوى قلبه على جرح لا يندمل، ولم يَرِثْ من والده شيئاً من الرزق، بل كان من الأشخاص الذين اعتمدوا على أنفسهم في بناء حياتهم.

وأهم ما ميّزَ شخصيته أنه تغلّب على حياته البائسة والمريرة بروح الدعابة وخفة الدم التي كانت وسيلته لمواجهة قساوة الحياة، فلم تكد تخلو له جلسة أو حديث أو معاينة من دعابة، وقد ردّدَ الناس دعاباته التي تدلُّ على خفة دمه، ولعلَّ ما قاله في سيارته العجفاء يدلُّ على ظرافته، إذ يقول:

تمرُّ سيّارتي العجفاءُ في طُرُقٍ
شعبيّةٍ ليسَ فيها لمحةٌ لغني
تراكضَ الصّبية الأغرار تتبعُني
مهما فررتُ، فراري ليس ينفعُني
هذا يصيحُ: وجيهٌ أمس أنقذَني
من الهلاك، وهذا: أمس طهّرَني!

شخصيّـتُه

شـعرَ سامر بالنعاس الشديد على الرغم من متعة الحديث، فخلـد إلى النوم، وفي اليوم التالي، اسـتيقظ، كأنه لم ينم، فلا تزال أصداء الحديث في ذاكرته. ذهب إلى غرفة والديه. طرق الباب، وهو ينادي:

أبي! أمي! لقد أحضرتُ لكما القهوة.

وهنا ضحكـت الأم، كأنها تقرأ ما يدور في فكر ولدها، ثم قالت:

سنتابع الحديث حالاً يا بني!

نظر سامر إلى والديه، وهما يرتشفان القهوة، متسائلاً:

هـل هناك رجـلٌ بهذه السـمات؟ لمـاذا غاب عـن أدباء

وطننا؟ ولماذا اسمه مغمور؟

قالت الأم: إن الحياة تظلم كثيراً من العلماء والأدباء، لكنَّ مسيرة الإنسان تُخلّده، فما عُرِفَ به هذا الرجل جعله مُخلَّداً في عقولنا، فقد عُرِفَ وجيه البارودي بأنه رجلٌ طيب بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان وما ترتبط به من أفعال، فنال مكانة رفيعة لدى فقراء مدينته، وكان إنساناً محباً لأبناء بلده، فعُرِفَ بمساعدة المحتاجين، كما أنه خصّص يوماً في الأسبوع لعلاج الفقراء مجاناً، وقد انطوت شخصيته على تناقُض كبير، إذ جمع بين شخصية الإنسان الطبيب العطوف، وشخصية الشاعر المتمرد، لكنَّهُ في الأحوال كُلِّها كان شخصاً محبوباً، وعلى علاقة وثيقة بالمجتمع، ومما زاد شعبيته أنه الشاعر الذي عبّر عن واقعه الأليم، منتصراً للفقراء على الأغنياء، فنقد الأغنياء، وحضَّ الفقراء على الثورة. وكان في عيادته طبيباً عالماً وإنساناً كريماً بكل ما تحمله الكلمات من معانٍ، حتى كُنِّيَ بأبي الفقراء.

وهنا التفتت الأم إلى الأب قائلةً: لقد عُرِفَ بالنرجسية التي تجلّت في تصرفاته وأشعاره وأحاديثه، فكان معجباً بنفسه

وبقدرتـه وإمكاناتـه، وعلى الرغم مـن إنسـانيته وحبه للناس ومساعدته المحتاجين، نجد في شخصيته إنساناً حادّاً لا يقبل الوقـوف فـي المنتصف، ولا يرضـى بأنصاف الحلـول، فهو شـخص انفعاليّ في حبه وكُرهه، وفي مدحه وذمّه، وفي قُربه وبُعده.

قـال الأب: نعـم، يـا عزيزتـي! لكـنَّ الـحُـبَّ هـو عنـوان شخصيته إلى أن تجاوز التسعين من عمره، فكان محباً للعمل والعلـم، ومحبـاً للطبيعة، ومحبـاً للجمال الإنسـاني، ويمتاز بروحه المرهفة، ومن أقواله: «أنا أقدمُ طبيب في حماة، وأقدمُ سـائق في حماة، وأقدمُ شـاعر في حماة ، وأتعس عاشـق في حماة».

مكانتُهُ وتكريمُه

سألَ سامرٌ والديه: تتكلّمان عن شخص مهم، فهل نال ما يستحقه من تكريم؟

أجابَ الأبُ: نعم، يا بني! لقد حظي بمكانة علمية مرموقة، وكُرِّمَ طبيباً، إذ قدّم إليه وزيرُ الصحّة في سورية د. إياد الشطي عام ١٩٩١م درعَ الوزارة بوصفه أقدمَ طبيب في سورية وصاحبَ أطول مدة عمل طبي في العالم، فقد ظلَّ على رأس عمله ما يزيد على الستين عاماً من عمره.

كما كُرِّمَ شاعراً، إذ أُقيمَ احتفال بمناسبة بلوغه السبعين عاماً عامَ ١٩٧٥م، وتحدّثت عنه نخبة من الأدباء والباحثين

والنقّاد والشعراء، وقدّم إليه محافظ حماة كأسَ الشعر.

وكتب عنه سهيل عثمان دراسةً بعنوان «آخر شياطين الشعر» صدرت عن اتحاد الكتاب العرب في سورية.

أصدقاؤه

سألَ سامرٌ: كيف تكوّنت شخصيته الشعرية؟ ومن أثّرَ فيه؟

أجابت الأم: في إمكان الإنسان المثابر الموهوب أن يبدع المعجزات، وهذا ما أثبته وجيه البارودي الذي وجد في الجامعة الأميركية مُتنفّساً رحباً للانطلاق وصَقْل شخصيته الأدبية، إذ تكونت شاعريته في جوّ أدبي كانت تحفل به بيروت في تلك الحقبة، فكانت الجامعة الأميركية جامعةً داخلية، وقد أتاحت لطلابها المزيد من التعارف والقيام بالأنشطة المتنوعة المفيدة، ونهل من مكتبة الجامعة الحافلة بكنوز التراث العربي في الوطن والمهجر، وتعرّفَ إلى شخصيات أدبية مرموقة في

الجامعة الأميركية كالشاعر الفلسطيني الكبير إبراهيم طوقان الـذي كان طالباً فيهـا، والباحث اللبنانـي الدكتور عمر فرّوخ أيضـاً، وشـاعر العـراق في زمانـه حافظ جميـل كذلك، ومع هـؤلاء الأصدقـاء أسّـس دار النـدوة عـام ١٩٢٦م، وصاروا يتبادلون المعارف فيما بينهم، فهذا يقول الشـعر، وذاك ينتقد، وكانت هذه الجمعية هـي البداية الحقيقية والناضجة لتجربته الشـعرية، لأنّ مـادة هذه اللقاءات جميعها هي سـماع الشـعر ونقده وكتابته وإبداعه، وله مع الشـاعر إبراهيم طوقان قصيدة مشـتركة بعنوان «وادي الرمان»، وقد امتزجا روحانياً في هذه القصيدة في كل كلمة وفي كل شطر:

وادٍ يهيـــمُ بـــه الجمـــالُ، وإنّـــهُ
ليكـــــادُ يُنطِقُـــهُ الجمالُ فينطـقُ
الـنّـــورُ فـي جـنـبـاتِـهِ مُـتـألّـــقٌ
والنّـــورُ في وجنـــاتِـها يتـــألّـــقُ

وقد أثبتها البارودي فـي ديوانه «بيني وبين الغواني»، وهذا الجو جعل جميع مؤسسـي الندوة يقولون الشـعر، حتى عمر

فـرّوخ الباحـث والناقـد نظـمَ الشـعر، وجمعـه فيمـا بعد في ديوان «فجر وشـفق»، لكنَّ الأشهر شعرياً كان إبراهيم طوقان والبارودي.

مهنةُ الطِّبّ

قال الأب:

يا بني! في إمكان الإنسان الناجح أن يُظهِرَ براعته في مجالات الحياة، فالحياة المهنيّة لا تنفصل عن حياة الإنسان اليومية، وهذا ما جسّده وجيه البارودي، إذ تركت حياته المهنية والعملية طابعها الخاص في حياته عامّةً، وفي شعره خاصّة، فقد اختلط بالناس بحُكم مهنته، وعرفَ بتواصله معهم سلبيات المحيط وإيجابياته، فلامسَ أوجاع الناس، وفي أبياته نلمس البساطة في حياته، وانعكاس مهنة الطب في شعره جليّاً.

لقد أخذ الطب مساحةً لا بأس بها من شعره، كما فعل

في السياسة والمجتمع، وتبقى أشعار الغزل أعلى مرتبةً عند البارودي الشاعر والعاشق، وسيّد العشاق كما كان يُحبُّ أن يُوصَف.

مُؤلّـفاتُـهُ الشِّعريّة

قالَ سـامر: لقد ذهلتُ بما سمعتُ يا والدي! أرجوك تابع! أريد معرفة المزيد عن حياته الشعرية وعن مؤلفاته.

قـال الأبُ: كان وجيه طبيباً وشـاعراً ذاتيـاً وجدانياً، صوّر حياته ومجتمعه تصويراً نادر المثال، ولم يُطبَع له سـوى ثلاثة دواويـن. طبع ديوانه الشـعري الأول «بيني وبين الغواني» عام ١٩٥٠م فـي طرابلس لبنان، وأملاه من ذاكرتـه لأن زوجتَهُ أُمَّ أسـامة أحرقت مخطوطـة الديوان برمتها، ولـولا ذاكرتُهُ التي أمدّتـه بغالبية الديوان لضاعَ الشِّـعرُ الذي صاغـه طوال أربعة وعشـرين عاماً، وفي عـام ١٩٧١م أعاد طباعة الديوان الأول، ثـم طبعَ الديـوان الثاني الـذي حمل عنوان «كـذا أنا»، ويضم

الشـعر الذي صاغه البـارودي في واحد وعشـرين عاماً، وفي عام ١٩٩٥م أصدرَ ديوانه الثالث «سـيّد العُشّـاق» الذي يضمُّ شـعره الذي أبدعه في واحد وعشـرين عاماً أيضاً، وأمّا ديوانه الأخيـر الـذي اختار له عنـوان «حصاد التسـعين» فهو لا يزال مخطوطاً، يذكره الشاعر وليد قنباز، إذ يحتفظ به في مكتبته.

أغراضُهُ الشِّعرية

سـألَ سامر: لكنْ ما أغراضُ شعره يا والدي؟! وما القضايا التي تحدّث عنها وعالجها في شعره؟

قال الأب: سأذهب إلى عملي الآن.

ردَّ سامر: لا، أرجوك يا والدي! أريد أن أعرف المزيد.

قالـت الأم: فضولك يعجبني. دع والدك يذهب إلى عمله، وأنـا سـأحدّثك عن عالم شـعره الجميل. لقد قال الشـعر في العشـرين من عمره، وقال عن نفسه: «أما الشعر فقد أتاني في العشـرين، فقلته صحيحاً دون فرزمة، ولـم أخلط بين الأبحر الشـعرية، لأنني وطّنت نفسـي على القراءة الشعرية والمثابرة على دراسـة القـرآن الكريم، المنهـل الأول للعربية وبلاغتها،

ومـا زلت إلى يومنا هذا هاوياً للشـعر، لا أكلـف بكتابته، ولا أكتب إلا خلجات نفسي وروحي».

عُـرِفَ بموهبتـه الشـعرية التـي تجلّـت فـي دواوينـه، التي أفصحت عن موهبة خلّدت صاحبها، وكان شعره وثيقةً تشهد لنا على الأحداث التي عاشـها بكل واقعية، فهو لم يكن قادراً على الارتجال مباشـرةً، فكلُّ ما يمر به من أحداث وما يعيشه مـن لحظات يسـكن عقلـه الباطن، وفي سـاعة صفـاء الذهن ينطلـق مع روحه، ويكتب ما يدور في باله، ويصوغه أبياتاً من الشـعر المحكم والمتماسك والمنسجم، بقدرة عجيبة وطاقة إبداعية تُفصِحُ عن إلهام عجيب.

لـم تكن أبياتـه إلا تجربةً حيـة مفعمة بالرمـوز، نلمس من خلالهـا ثقافتـه، وصدقه الفلسـفي والأخلاقـي والفني، وهذا ما يشـي بصدق تجربته الإنسـانية وصدق التعبير الفني، فكان بعيـداً عـن المبالغات الخارقة، وقد عاش بروحه لا بجسـده، إذ تجاوز التسـعين عامـاً، وهو بكامل قوّته الجسـدية وروحه الـمُحبّة الـمُتصابية، ولا يمكن لأيّ جسد أن يحتملَ ما مرّ به.

قال سـامر: حقاً يا أمي! على الرغـم من أنني قرأتُ لبعض

الشـعراء، وقرأت بعض القصائد في كتبي المدرسـية، لكنني لم أشعر بصدق التجربة الشعرية كما تتحدثين عنها.

قالـت الأم: نعـم، يـا بني! لأنّ شـعر البـارودي كان واقعياً عـبّـرَ فيـه عـن حياتـه وشـخصيته ومدينتـه ومجتمعـه، فهو هـاوٍ للشِّـعر، وليـس مُـحترفاً ولا مُـتكسّـباً، ويُعبّر عن نفسـه ووجدانه، فحـمـلَ شـعره نكهة العصر، ولامس الواقع، ومن خلاله تعرّفْنا تركيبةَ المجتمع الحمويّ بكل ما فيه.

إنّ شعرَ البارودي بأجمعه معاناةٌ حقيقية، وتجربةٌ حية، وقد عمد الشاعر إلى الرموز، وعكست أبياتُهُ حياتَهُ بأدقّ التفاصيل: علاقاته، تصرفاته، طريقـة حياته، حبه للناس، مهنته، ألمه من الفسـاد، واقعه... ومن هنا نجد صدقاً في التجربة وصدقاً في التعبير الفني، ويتجلّـى ذلك بقوله:

شعـري حيـــاتي، مـــن أراد تعـــرُّفـــاً
بي فهـــو عني التّـــرجمـــانُ الأفضـلُ

كمـا يُذكَـر أنّ البـارودي حـاولَ أن يدخـل غمـار الميدان السياسـي ليحقق فيه ريادةً وسـيادة منذ تخرجـه في الجامعة،

حتى منتصف الخمسينيات، لكنه أخفق، بيد أنه تفوق في ثلاثة ميادين هي: الطب والشعر والحب. يقول:

أنــا نبيُّ الهــوى، والشِّعرُ معجــزتي
وكُــلُّ مُحتــرقٍ بالعشــقِ يُـؤمِنُ بي

ولـم يكتـفِ بذلـك، فقـد مثّــلَ شـعرُهُ شـخصيتَهُ الثائرة، وعشـقه المتفاني، كما تظهر في شـعره إنسـانيته في ممارسـة الطب وفلسفته الخاصة وقناعته الذاتية.

عاصـر البـارودي القـرنَ العشـرين حتـى نهايتـه، فعـاشَ الحربيـن العالميّتين والمجاعـات والحروب والأحداث التي عصفـت بالمنطقة، لكنه نأى بنفسـه عـن كل تلك الأحداث، وابتعـد عـن السياسـية، واسـتلهم الحـب والجمـال، واختار لنفسه عالماً خاصاً محوره الشعر والمرأة، فقال:

أنــا في السيــاســةِ ليسَ لي باعٌ، ولي
في الـحُــبِّ أجنحــةٌ تُـحلّقُ للعُــلا

لقد ترك أثراً لا يُستهان به في نفوس قُرّائه ومعارفه، وجمع في كلماته بين البساطة والعمق والانتماء إلى قضايا الشعب، ومما زاد مكانته بين الناس أنه ابتعد عن المراكز، وكان متواضعاً قريباً من الناس وهمومهم، على الرغم من انحداره من عائلة ثريّة، ولم يُسوِّقْ لنفسه يوماً بوصفه شاعراً، بل كان يُصنِّفُ نفسَهُ من الهواة، لذلك لم تحظَ دواوينه ومنشوراته بالتوزيع والنشر الجيّدَين.

الاعتزازُ بالذات

سـألَ سامرٌ أُمَّه: أمي! كيف بدت شخصيته؟ وبـمَ تميز من غيره من الأطباء والشعراء؟

أجابـت الأم: عزيـزي! لقد تميّـز البارودي باعتـزازه بذاته وبإنسـانيته وبالوفـاء لعملـه، إذ عُـرِفَ بتفوّقـه فـي ممارسـة الطـب، حتّى صار مرجعـاً للحالات المسـتعصية، كما رُويَ عنه كثيرٌ من النوادر والحكايات التي كانت تحدث معه يومياً في أثناء ممارسـته الطب، واشـتهر بابتـكاره طرائق مميزة في العـلاج تعتمد كثيـراً على نظرته الثاقبة وعلى الناحية النفسـية للمريـض، فتعـدّدت طرائق علاجـه، كما تعدّد النـاس الذين عالجهم، وتعامل معهم. قال عن نفسه:

حكيمٌ، خبـــرتي تسعـــونَ عـــاماً
ومـــدرستي التَّـجـــاربُ والعلـــومُ

ومـمّـــا عُـرِفَ بـه البـارودي روحـه التـي لامسـت معاني الإنسـانية، وأفعاله التـي خلّدت ذكراه بعد موتـه، فمن قصدَهُ من الناسِ أكرمَهُ، عدا الذين كان يقصدهم بنفسـه، ويعالجهم فـي بيوتهم، ولا يخرج قبل أن يضع ما تيسّـر من النقود تحت وسـائد أسـرّتهم، حتى غدا صوته في الطب والشـعر والعمل الإنسـاني حديثاً ملأ الدنيا في حماة، وشـغل بـال الناس. قال عن نفسه:

وأنـــا الطبيـــبُ الألمعـــيُّ، ولي على
بلـــدِ النـــواعيرِ اليـــدُ البيضـــاءُ

كان وجيـه البـارودي يزهو بنفسـه، ويعتز بشـبابه، فالزمان لا يؤثر فيه، وروحه شـابة دائماً، وقـد افتخر بذاته في أكثر من موضع في شـعره، فهو طبيب الأجسـاد والأرواح كما وصف نفسه:

أتيتُ إلى الـدُّنيـا طبيبـاً وشـاعراً
أُداوي بطِبِّـي الجسمَ، والرُّوحَ بالشِّعْرِ

اشـتهر بحبه للفقـراء في أنحاء محافظة حمـاة، وقد افتخر بذلـك، وتحدث بشـعره غيـرَ مرّة عـن حبه للفقـراء وعداوته للمال، ومن ذلك قوله:

وبيني وبينَ المـالِ قـامَتْ عداوةٌ
فـأصبحـتُ أرضى باليسيرِ من اليُسْرِ
وأنشـأتُ بينَ الطِّبِّ والفقـر أُلفـةً
مشيتُ بهـا في ظِـلِّ ألويةِ النَّصـرِ

ويقولُ في قصيدة أُخرى:

في خدمةِ المحمومِ والمحرومِ والمُتسوِّلِ
فيما فعلتُ سعادتي، لا في غنى الـمُتموّلِ

ولهـذا نجدُ أنّ محبتـه وعطاءه لكل من حولـه تركا ذكرى حيّةً في قلوب أبناء مدينته حماة.

شِعْـرُهُ الاجتماعـيّ

قالـت الأم: سـأتوقف الآن عن الحديث يا بني، وسـأنتظر منـك أن تبحـث في الشـابكة، وتجمـع معلومات عـن وجيه البارودي، وتخبرني بها مساءً يا عزيزي!

انطلق سـامر إلى غرفته مسرعاً، ليعرف المزيد، ويقرأ شعر وجيـه البـارودي، فوقف عند الجانب الاجتماعي في شـعره، ووجـد أن شـاعرنا عـاد إلـى مدينتـه الجميلـة بعـد أن درس الطـب، وفـي ذاته رغبـة دفينة في تغييـر الواقع إلـى الأفضل، فعاش حياة البسـطاء بكل محبة ومودة، وسـعى في شعره إلى رفـض مظاهـر التخلف فـي المجتمـع وتغييرهـا، وحاول أن يُرسِّـخَ ما يراهُ مُـتماشـياً مع الحياة والتجديـد، لكنَّ العقليات

التـي أحبت النمطية لم تقبل التجديد ولا التغيير، وهذا جانب من الجوانب التي طرحها في شـعره، ومن المؤكد أن الشاعر هـو لسـان العصر، يحكي في شـعره مـا يراه وما يشـعر به بما يتناسـب مع الواقع، وقد انطوى شـعرُ البارودي على كثير من سـلبيات مدينته، وهذا ما جعل بعض النقاد يقفون من شـعره موقـف النقد الصـارم، غافلين عـن أنّ ما طرحَهُ من سـلبيات كان هدفـه البنـاء، فما ذكره مـن نقد لهذه المدينـة التي أحبها كان نقداً بنّاءً، وقد وجّه شـعره هـذا إلى فئة متخلفة ومريضة، فابتعـد عن السياسـة، واختصَّ بالإصـلاح الاجتماعيّ، هادفاً إلـى تقـدُّم مدينتـه ورقيّـهـا وحضارتهـا، وداعياً إلـى التحرر والتقـدم والانفتاح على حياة العصر، فكان في منزلة المصلح الاجتماعـي الثائـر المتمرد، الـذي رفض التخلـف والجهل، وحارب العادات البالية والتقاليد، فلم يكن شـعره شـعراً ذاتياً وجدانياً فحسب، بل كان دروساً أخلاقيةً هدفت إلى تخليص المجتمع من الجهل والكبت والتزمت والفسـاد، فكان شعره جريئاً صريحاً واقعياً إصلاحياً.

كان يدعو إلى السـير في طريق العيش السامي والدفاع عن

حقوق الإنسان. يقول في إحدى قصائده:

ولقد برانا اللهُ في بلدٍ تحجّـرَ أهلُهُ في مُـتحَفِ العهد القديم
الكبتُ والعاداتُ والنُّظمُ العتيقةُ والتَّـخلُّفُ داءُ مُـجتمعٍ سقيم

خرج سـامر مساءً، فوجد والدَهُ منشـغلاً بهاتفه المحمول، فقالَ له:

أبي! أريد التحدُّث معك.

قال الأب: تفضّل يا بني!

قـال سـامر: لقـد قـرأتُ أنّ شـعر البـارودي تميـز بالنزعة الاجتماعيّة الانتقادية. ما معنى ذلك؟

ابتسم الأب، وفي قلبه شعور بالفخر لأنّ ولده يسأل ويُدقِّق في الأمور، ثم قال:

ابنـي الغالـي! كان وجيه البارودي شـاعراً متمـرداً، وعلى صلـة كبيـرة بالواقع والمجتمـع، فتكلم بلسـان حال عصره، ووجّـه في شـعره انتقادات كثيـرة إلى مجتمعـه وبيئته، لكنها انتقـادات بنّـاءة تهـدف إلـى ارتقـاء المجتمـع ورقيّـه، فنقد الأغنياء كما في قوله:

مررتُ أمس على العافينَ أسألُـهم:
ما تَبتغُونَ؟ أجابُوا: الـخُبزُ والماءُ
ومـرَّ بي مُـتـرَفٌ يشـكـو، فقُلتُ لـه:
مِـمَّ اشتكيتَ؟ أجـابَ: العيشُ أعبـاءُ
سـيّارتي فقدَتْ في اللونِ جِدّتَـها
أُريدُ أُخـرى لها شكلٌ ولألاءُ
يا مُعـدَمُونَ أفيقُوا من جَـهالتِـكُم
يا مَـنْ حيـاتُكـمُ نتنٌ وأوبـاءُ!
لا بُـدَّ لـلأرض من يـومٍ تثـورُ بهِ
والشمسُ من حنـقٍ في الأُفْقِ حمـراءُ

كمـا صـوّرَ في شـعره كثيراً مـن اللقطـات التي مـرّت في حياتـه، فجاءت صُوراً واقعيّةً فيهـا كثيرٌ من الطلاوة والجمال والدُّعابـة، ولعـلَّ نقد المجتمع من حوله فـي مدينته حماة من أهـم الموضوعات التي وقف عندهـا، لأنَّ في داخله رغبةً في تغييره، ولذا كان شعره دعوةً إلى الثورة على التخلف والفقر.

ومـن المؤكد أن المواصفات التي اشـتمل عليها مجتمع حماة لم ترق لشاعر قادم من الجامعة الأميركية التي تُـمثِّـلُ بقعـةً غربيّةً في وسـطٍ شـرقيّ، فانتقـدَ مجتمعه ومـا فيه من عـادات وتقاليد نقداً يترنح بين اللطـف والعنف، وما كانت غايته من هذا الشـعر النقدي إلا تسليط الضوء على الفساد، والتوجـه إلـى الإصـلاح ما أمكن، وإرسـاء قواعـد مجتمع جديد متطور يأخذ بأسباب الحضارة والتقدم والديمقراطية السـليمة، فقد كان البارودي يحلم بمجتمع لا عدوان فيه أو طغيان، ولا اسـتعباد فيه أو استئثار، مجتمع يقوم على العقل والعلم.

قال سـامر: حقاً يا والدي! لقد لمستُ هذا الطموح الأمثل نحو مجتمع المسـاواة والعدالة والأمـان لـمّـا قرأتُ قصيدته «إلى العالم الأفضل»، وفيها بشَّـرَ بـولادة هذا العالم المثالي. يقول:

سـيـأتـي الـــزمـــانُ بـــإبـــداعِـــهِ
يُضـيءُ العُقـــولَ، ويَـجلُـــو الفُنـــونْ

فتمشي الذِّئـــــابُ خـلالَ النِّعـــاجِ

فـلا خـائـفــونَ ولا مُـعـتَــــدُونْ

ويسعى الجميـــعُ لخيـــرِ الجميـــعِ

فـلا مُـعــدَمُــونَ ولا مُــــتـرَفُـونْ

زمــــانٌ يــســودُ بــهِ الـعـالِـــمُـون

كمــــا ســــادَ في عصرِنـا الجاهِـلُونْ

قـالَ الأب: نعـم، هـذا مـا قصدتـه يا ولـدي! لقد عبّـرَ في هـذه الأبيات عن رغبـةٍ دفينة، حملـت في طيّاتها نقـداً لاذعاً لمجتمع يسوده الفسـادُ والجهل، وكان يتمنى أن تتغير الحالُ لتعـمَّ المجتمعَ المسـاواةُ والعدالة، ويأخذ العلماء حقوقهم، وينتصر العلم على الجهل والفسـاد، ولـم يكن نقده لمجتمع مدينتـه إلا رغبة في إصلاحه وبعـثِ الحياة فيه من جديد، وما يُؤكِّـدُ حُـبَّـهُ لمدينته قوله:

وفي حمــاة مُـقيــــمٌ لا أُغــــادِرُها

فشاطئُ البحـــر عندي ضفّةُ النَّـهَرِ

فيهـــا النـــواعيرُ والعاصي وشاعرُها
ثـــلاثةٌ ميّـزَتْنـــا حكمةُ القـــدَرِ

إنَّ الشاعر الحق يشعر بما حوله، ويُعبّر عنه، ويلامسُ جراحَ مجتمعـه، لذا حاول البارودي بأقصى ما يملك من طاقات أن يُضمّـدَ جراح مدينته، ويعالـج ما فيها من أمراض، ولم يكتفِ بعلاج الأجساد فحسب، بل بأحاسيسه المرهفة حاول جاهداً أن يرمـم الأمـراض النفسـية والأمـراض الاجتماعيـة، فـكان طبيباً يعالج المرضى بعلمه، وشـاعراً يعالج المجتمع بحسـه وعاطفته التي تؤكد محبته لهذه المدينة حينذاك، وقد استشرى فيهـا الفسـاد من كل جانـب، وباتت العـادات والتقاليد تفتك بمجتمعهـا، وتعيده إلـى الخلف، بعيداً عن التطـور والتقدم، وهـذا مـا حـاول البـارودي أن يلامسـه بعلمه وحسـه، ونادراً مـا نصـادف إنسـاناً يتسـاوى عنده العقـل والفكر والمشـاعر والأحاسيس، ومن هنا كان شاعرنا شاعراً اجتماعياً وجدانياً، دعا إلى الإصلاح، وسعى إلى معالجة الناس والمجتمع، بعد أن أدرك بفطنته أن الأمراض متشـعبة ما بين النفس والجسـد،

ولعـلَّ الأمـراض النفسـية هـي من أهم الأسـباب التـي تفتك بالجسم.

هنا دخلت الأمُّ، وهي تقول:

لقد سمعتُ ما دار بينكما من حديث، وأريد أن أقـول لك يا سامر: إن البارودي إنسانٌ وفـيٌّ مُـحِبٌّ مخلص، فقد عاش حياته في مدينته، ولم يتخلَّ عنها يوماً، وكان ميسـورَ الحال علـى الرغم من أنـه عانى ما عانـاه في بداية حياتـه، لكنه لم يعش حياة البؤساء والمحرومين، ومع ذلك لم ينسَ واجباته تجـاه أبناء بلده، فشـعر بهـم وبما عانَـوهُ مـن فقر وحرمان، والتزم بواجباته القومية والإنسـانية، فعُرِفَ بإنسـانيته، وهذا مـا جعل اسـمه مُـخلّـداً في مدينتـه التي لم تنـسَ فضله إلى يومنا هذا.

لقد مثّـلَ، بما عُرِفَ عنه، شخصيّةَ إنسانٍ تفاءل على الرغم مـن جراحه التي كانـت في الصِّغَر، يرغب في الاسـتمرار في الحيـاة بقلب شـاعرٍ محب وطبيـبٍ لم يتوانَ يومـاً عن خدمة الناس، فكان مثالاً صارخاً على الدأب والطموح، ومثالاً على مفهـوم الحـب في الحياة، ومـا يؤكد هـذا أن البارودي وصل

إلى التسعين من عمره بقلب نابض ناضر يُحبُّ ويعشق، ويكتبُ شعراً.

قال سامر: أمي! لقد بحثت مليّاً، وأثار إعجابي ما كُتِبَ عنه، فهو لم يكن كغيره من الشعراء الذين اكتفوا بقول الشعر بوصفه موهبةً أو إحساساً، فلم يقل الشعر إلا بعد أن أدرك أن الشاعر يعالج الروح، ومن هنا كان طبيباً شاعراً وشاعراً طبيباً، لأنه أدرك أن الروح في حاجة إلى ملامسة جراحها، وأنها تمرض وتحتاج إلى علاج، لذلك كان شعره علاجاً روحيّاً، وبذلك أدرك أنّ الطبيب الماهر هو الذي يعالج المرضى جسدياً وروحياً.

قالت الأم: أحسنتَ يا بنيّ! إنّ ما يؤكد الجانب الإنساني في شخصيته الأبيات التي قال فيها:

شريتُ خزانةً لأصُونَ مالي
ولا مالٌ سوى قُوتِ النَّهارِ
وقُوت اليوم أحفظُهُ بجيبي
وليسَ لديَّ فضلٌ لادّخارِ

الـحُبُّ والغزَل

قالَ سـامر: سـأُتابع بحثي يا أمي! أريد أن أقف عند أهم ما قاله، وأريد أن أسمع شعره، وأتذوّقه.

قالـت الأم: هذا هو ولدي الفَطِن. أنتظـرُ منك غداً إخبارنا بأهـمّ ما قاله في الشِّعر.

تابـع سـامرٌ بحثه الـدؤوب، وجمـع المعلومـات عن أهم أغـراض البـارودي الشـعرية، ليجـد أن شـعره اقتصـر علـى معانـي الحب والغزل، وابتعـد عن المدح والتزلـف والرياء، وأمـا الهجاء الـذي كان مبعثاً لنقـده المرتبط بحمـاة، فهو لم يكـن هجاءً لمدينته التـي أحبها، بل كان نقـداً اجتماعيّاً، وقد أهدى حماة ديوانَهُ، وسعى إلى بث روح التضامن الاجتماعيّ

بعقلـه المفكـر، كما وجد سـامرٌ أنَّ الغزلَ والـحُبَّ والعشـقَ أبـرز المحاور فـي دواويـن البـارودي، ومع اطلاعه الواسـع على الشـعر العربي قديمـه وحديثه، فقد جـدّد في الموضوع والمعاني والأفكار، إذ تفوح من شـعره نكهة العصر، وتتجلى سـمة الواقع وحياة مجتمع مدينة حماة السورية بكل جزئياتها ودقائقهـا، إضافةً إلى ما يُلحَظ في ثنايا هذا الشـعر من تصوير للوجد والشوق والوصال والجفوة، وقد استمر معه ذلك على مدى سبعين عاماً، وهذا ما أكسبه لقب «سيّد العُشّاق».

خرج سامرٌ مساءً، فوجدَ والدَهُ جالساً يشربُ الشاي، فقال:

يـا أيُّهـا الحيـرانُ في دُنيـا الهـوى
هـيّـا استمـعْ لتجـاربي ونوادري
أنا سيّدُ العُشّـاق مِـن قبـلِ الشَّـبا
بِ، ومن نعـومـة أنـمُلي وأظـافري

ضحك الوالدُ ضحكةَ إعجابٍ بولده، وقال:

أين والدتك لتسمع ما تقول؟

دخلت الأم، وهي تُصفِّقُ، وتقول:

هـذا هو ولدي حبيبي. كيف وجدتَ شـعره يـا بُنـيّ؟! لقد اتســم شعرُه بحسه ونفحات روحه الشاعرة، كما فاض نصُّه حباً وعذوبة ورقّة، فهو شاعر الحب والفن والعاطفة والغزل، الـذي أهمـلَ طـوال حياتـه طلب الشـهرة عـن طريق النشـر، واكتفى بأنْ أخرج ديواناً ينطوي على شعره الذي نظمه خلال ربـع قرن، وجعله أثراً متواضعاً لإهدائه للأصدقاء والمحبين، وترفّع عن المادة، فلم يعرضه للبيع في المكتبات العامة، وقد نشأ عن ذلك أنْ أهملَـهُ النقّاد وجَـهِـلَـهُ الأدباء.

انطوى شـعره على الغزل بالمرأة والتغنّـي بها، ويضم هذا الجانـب الغزلـي مغامرات وجيـه العاطفية بأسـلوب حواريّ جمـع بيـن ومضـات الخيـال الابتـكاريّ ومفـردات الواقـع الحســيّ، ولم يتوقّف عن قول الشعر، حتى بعد أن أصبح في التسعينَ من عمره، ويتجلى ذلك في قوله:

أنا الـمُــراهــقُ للتِّسعينَ يشهــدُ لي
شِعري، ويَنــــدرُ في التــاريخ أمثـالي

قـال الأب: نعم، لقد برع وجيـه البارودي في تغزُّله بالمرأة

منذ ديوانه الأول، لكنَّ نظرته أو فلسفته في الحب تبدّلت بين مرحلة وأُخرى، ففي البدايات كانت أشعاره تفيض عذوبةً ورقة وشفافية ومحبة، أما في أواخر حياته فقد اختلفت نظرته إلى المرأة، وعمد إلى الغزل الصريح.

وقد شكّلت حالة المحاكاة والابتكار أهم سمات شعره الغزليّ الذي حمل في جوهره مسارَين مختلفين تماماً: مسار مثاليّ أثيريّ، وآخر ماديّ واقعي.

وهنا قالت الأمُّ: استحالت صورةُ المرأة مُكوّناً من مكوّنات القصيدة في شعر البارودي، وأضحت المرأة في شعره هي القصيدة والإبداع، وجعل غزله نشيداً في المرأة، وجمع في أحاديثه بين العشق والحرية، وبين العشق والتميُّز، وهذا ما نلمسه في ديوان «سيّد العشاق».

أثبت البارودي من خلال ما تركه لنا من صور جميلة عن حياته التي كانت مرتبطة بالحب على نحوٍ كامل أنه شاعر الحب، وأنه من دون الحب لم يستمر في حياته، حتى وصل إلى التسعين. لقد عاش بقلب محب، ووجد أن الحب هو الشفاء، وهذه دعوة شاعر طبيب وعالم وجدَ أن الحب أقوى

مـن كل العقاقيـر الطبيـة، فهـو الذي يعيد الشـيخ إلـى صباه، وهـو عـلاج المسـنين والمرضـى، فالحـب فـي نظـره يصنع المعجـزات، وهو يؤمن تماماً بقدرة الحب على الشـفاء أكثر من الطب. يقول:

حُـبّي مـــعَ التِّسعيــن لم يَتبـــدّلِ
بـالعشــقِ لم يَفتُــرْ ولـــم يَتبَـــذّلِ

قال سامر: أمي! لقد قرأتُ كثيراً عن البارودي في الشابكة، ومما وجدته أنه شـاعر موهوب جمعَ الذكاء والفطنة وحسن الاختيـار، ودلَّ شـعره على سـعة ثقافته، فلم يكتـفِ بالكتُب العلميـة، فـكان طبيباً بارعاً يُدمِنُ المطالعةَ في دواوين الشـعر وكُتبِ الأدب.

قالـت الأم: نعم، يـا بني! إنّ غرض الحـب هو الذي طغى علـى شـعر البـارودي، لكـنْ عليـكَ أن تعلم أن الحـب عنده حُـمِّـلَ بمعـانٍ عميقة، منها: حب الشـاعر لمهنتـه وموهبته، وحبـه لمدينتـه وأبناء بلده، وحبّ التمـرد والتغيير والتجديد، وحب المرأة... ولعلّ أكثر ما تناسـب مع مهنته بوصفه طبيباً،

وتجلّى في دواوينه، الحبّ الكبير الذي حمله الشاعر في ذاته للناس كافة، ومنهم أبناء بلده، على الرغم من التمرد الذي ظهر في كثير من الأحيان على التقاليد والعادات الموروثة، وفي المقابل نتبيّنُ حُبّ الناس له، فأينما سار في أزقة مدينته وشوارعها وجد الناس يحتفون به، فكان الشاعر عفوياً، انغمس بين الناس في علاقة حب حميمية، فهو قريب من الجميع، ولعلّ إحساسه الشاعري جعله طبيباً يشعر قبل أن يداوي، على الرغم من أن الطب كان طريقه إلى الشعر، مع اعتقادنا أن بذرة الشعر كانت مغروسةً فيه قبل بذرة الطب، وهذا ما جعل الشاعر منفرداً في زمانه بوصفه طبيباً عالماً وشاعراً شعبياً كسب محبة الناس وثقتهم، ودعا إلى مجتمع لا أثر فيه للظلم والفقر، مجتمع تسوده مبادئ الحب والحق والخير والجمال والعدالة.

شِعرُهُ الواقعيّ

قالت الأم: سأترك لك البحث عن شعره الواقعي يا بني! وسنكمل حديثنا غداً.

وتابع سامرٌ رحلةَ البحث في الشابكة، وراح يقرأ المعلومات التي كُتِبَتْ عن وجيه البارودي والكتب النقدية في شعره، وفي اليوم التالي، قالَ لأمه:

أمي! لقد تابعتُ البحثَ في شعر البارودي، مع أنني لم أفهم بعض ما قاله، لكنّ هذا الشعر كان يمثل جوانب حياته بكل تفاصيلها، وبكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات، وبكل ما تحمله من أفراح وأحزان، وبكل ما فيها من خيبات ونجاحات، ويتجلّى ذلك في قوله:

شِعــري حيــاتي، مَــنْ أرادَ تَعــرُّفــاً
بي فهــو عنّي التُّرجمـــــانُ الأفضــلُ
فيهِ الصّبــا، فيه الهــوى، فيـــهِ التي
أنـــا في هـــواهـــا جمـــرةٌ تتــآكَــلُ

وهنا قالَ الأب: إنّ ما كتبَهُ البارودي شعرٌ يُوثِّقُ علاقتَهُ بالواقع وتجلياته بكل ما فيه، وبكل أحزانه وأفراحه، ومما لا شك فيه أن الإنسان يعيش تجاربَ عدّة، ولا سيما الشاعر الذي يحمل في داخله أحاسيسَ تفوقُ أحاسيسَ الإنسان العاديّ، فكيف بشاعر طبيب لامس جراح الناس وعاش أوجاعهم! وكيف بمغترب قارنَ مجتمعه، بعد أن عاد من رحلته الدراسية، ببلاد متطورة فكرياً وحضارياً، فوجد التخلف والفساد والعادات البالية والتقاليد التي باتت تُشكّلُ قيوداً على المواطن عامّةً، وعلى أصحاب الفكر والعلم خاصّةً! وهذا ما لمسناه في شعره، فحيناً نجده عاشقاً، ونعيش معه قصة حُبّ ومغامرة تنقلنا إلى عالم جميل يحوطه الحب والعشق والغرام، وحيناً نجده ثائراً ناقداً يثور على عادات المجتمع وتقاليده،

وحيناً نجده مصلحاً يشير إلى سلبيات مجتمعه ليرقى به إلى الحضارة والعلم، وبذلك لامسَ البارودي الحياة بجوانبها كلها، وكان شاعرَ الكلمة والموقف، ومن هنا نجده لم يهتم بأغراض الرثاء والمدح والهجاء والوصف.

وقد آثرتُ أن أقتطف أبياتاً من آخر قصيدة كتبها قبل رحيله إلى مثواه الأخير، والتي يقولُ فيها:

أمشي إلى غـايتي في مُـنتهى التَّعـبِ
كأنَّ سـاقَـيَّ قُضبـانٌ مـن الـحَطَبِ
فإنْ أكلـتُ فأكـلي جـدُّ مُـختصَـرٍ
مِن الـخُضـار وحبّـاتٍ من العِنَبِ
وقد عميتُ، فـلا قُبـحٌ يُـمَـجُّ، ولا
حُسنٌ لهُ رعشةٌ للـحُـبِّ في عصَبي
كـذاك وقـرٌ بسَمْعي ازدادَ في كِبَري
فـلا غـنـاءٌ ولا عـزفٌ يُـؤثِّـرُ بي
شَـمِّـي وذوقي ولَـمْسي جُـلُّ ما بقيتْ
مِـنَ الشُّعورِ، فلم أُقلِـعْ عـن اللَّعِـبِ

آراءُ مُعاصريه

قال سـامر: لقد قرأتُ كثيراً عن الشـاعر وشعره، لكنني لم أعرف آراء من عاصره من نُقّاد وكُـتّاب.

قال الأب: إنَّ دليل نجاح الإنسان تأييد الكبار والعلماء له، فقد اتفقت الآراء النقدية الأدبية التي عاصرت الشاعر الراحل وجيـه البارودي على عبقرتيه الشـعرية، فالأسـتاذ عبد الرزاق الأصفر رأى أنه من أعلام الطب والشعر، وقد اعترفَ الشاعر محمـد منذر لطفي فـي قصيدته «عزف حزيـن» بأن البارودي نجم القريض وأمير الشـعر، وأما الشـاعر محمد عدنان قيطاز فقد نظر إليه على أنه رائد التجديد، وهو نجـمٌ ساطع في فنه، إذ يقول:

يـا سـيّـدَ الـعُـشّـاق فـنُّـكَ ساطعٌ
مـــا فيـــهِ لا زيـــفٌ ولا تقليـــدُ
أبـــدَعْتَـــهُ، وسَمـــوتَ في إبـــداعِـهِ
إنَّ الـمُبيـــنَ عـــلى البيـــانِ عـــتـــيـــدُ

في حين رأى الشـاعر عبد المجيد عرفة أنّ شـعر البارودي كالمجد الذي خلّفَ شمسـاً تبعث الأمـل، ونظر القاص نزار نجار إلى شعره، فرأى أنه منارةٌ من الجرأة في مجتمع محكوم بالكبـت والصمـت، وأما الشـاعر عبد الوهاب الشـيخ خليل فقد رأى أن شـعره كالخمرة والغرام، وقد رأى الشاعر محمد حسـن منجد أنه شاعر الغزل الذي غازلَ الدنيا، في حين رأى الشـاعر حسـان الصاري في رحيله المصاب الأليم وخسـارة للشعر، وأشار الشاعر وليد قنباز إلى أنّهُ «صدحَ بالشعر مُنغّماً وموزوناً وجامعاً لكل سـمات الشـعر الأصيل، فكراً وأسلوباً ولُغةً وأخيلةً».

نعم، يتجلّى في شـعر البارودي صـدى الإيمان، وقد ملك الصـدق والوفاء فـي قوله وفعلـه، فأعطى الحياةَ نغمـةً رقيقة

عذبة الألحان، ولا سيما في قصائد الحب والغزل.

وبذلك يا ولدي استطاعَ البارودي أن يترك بصمته في الأوساط الاجتماعية والسياسية، وأن يأسر الأدباء والشعراء ليقفوا أمامه معجبين بعبقريته، وهنا يستحضرني رأي الأستاذ عبد الرحمن عياش الذي يقول: «في قيثارة وجيه وترٌ ثالث رفّاف الجناح، خصيب النغم، وهو وتر الاجتماع على أن ريح الشاعر لم تكن في قصائده الاجتماعية ليّنةَ الهبوب، فهو على أشد ما يكون اكفهراراً، وأشد ما يكون مضاءً، وهو في اجتماعيّاته موسيقار في عينه جذوة من نار تتطلّعُ إلى الوتر، وهو يكاد يتقطّعُ تحت قبضته ويموت».

وقالَ شاعرُ حماة بدر الدين الحامد في شعر البارودي: «هو ليس ممن ينظمون الشعر للنظم، ولا من أولئك الذين يتحيّنون المناسبات للقول، ولا ممّن يضعون الموضوع نصب أعينهم، فلا يزالون يجهدون النفس حتى يستقيم لهم الشعر. إنه لنفسه ولأخيلته وذكرياته ووصفه ورضاه ونقمته».

قال سامر: شكراً يا أبي! نعم، لقد حظي شاعرنا بشهادة الكبار، ونالَ مكانةً مرموقة.

قالـت الأم: هو شـاعرٌ للشـعر لا للنظـم، وهذا مـا نلمحه فـي أشـعاره كلهـا، فهـو لا ينظـم الشـعر الخالي مـن الروح والإحساس، وإنما يفيض شعراً وحباً وعذوبةً مع ثورته ونقده البنّاء.

أسلوبُ الشَّاعر

قالَ سامر: أبي! لقد قرأتُ له شعراً كثيراً، لكنْ ما الذي ميّزَ شعره من شعر غيره من الشعراء؟

أجاب الأب: إنَّ ما كتبه البارودي من شعر يُوضح أنه امتلك قدرةً عجيبة على تأليف قصيدته بمهارة وذوق وإحساس مرهف، فاتّسمت قصائده بالانسجام الكليّ القائم على اتساق بنية النص الداخلية القائمة على علاقات الألفاظ وبنيتها في تشكيل النص، وترابطه من حيث ائتلاف الألفاظ مع المعاني، ومن هنا اكتسب النص رصانةً وتماسكاً من خلال الروابط الداخلية التي أفضت إلى انسجام بنية النص الخارجيّة، وإنْ وقفنا قليلاً عند أسلوب الشاعر في بناء نصه

نجـده يعمد بوضـوح إلى ربط واقعه بشـعره، وهـذا ما جعل القارئ يستجلي أثر المهنة والثقافة من خلال ألفاظه وصوره، ويستدل بسهولة على أنه طبيب وعالم ومثقف كبير.

تابعـت الأمُّ قائلةً: كان شـاعرنا حاذقاً مُـتنبّـهـاً، إذ إنه تأثر بمهنتـه بوصفه طبيباً، فكانت أبياته صورةً ارتبطت بواقعه إلى حـد كبيـر، لكنه كان حريصـاً على إيجاد التناسـق بين الأدب والعلـم، وفصـلَ بين أدبه وعلمـه، وحاولَ في شـعره الابتعاد عن برودة المصطلحات العلمية وعن الألفاظ العلمية الجافة، وسـخّرَ عِلمَهُ ليقدم إلينا صـوراً جديدةً مبتكرة مُسـتوحاة من علمـه وعمله اليومي، وهو شـاعر مطبوع، ابتعـد عن الصنعة والتكلف، ولم يحترف الشعر أبداً، بل ظل هاوياً طوال حياته، لا يَنشُـدُ منها سـوى قصيدة الغزل والحب وسـمّاعة الطبيب، وكان من مناصري الشعر القديم.

البارودي وخفّةُ الظِّلّ

سأل سامرٌ أباه: ما معنى خفّة الظلّ في الشعر؟

أجاب الأب: يا بني! لقد كشفت لنا أبياتُ البارودي شخصيةَ إنسان يتمتع بخفّة ظلّ لا مثيل لها، وقد تجلّى ذلك من خلال قصص الحب التي بدا فيها شاعرَ المغامرات وشاعرَ الكلمة الرقيقة، حتى في أكثر موضوعاته جدّيةً نجده طريفاً، ولذلك لم يستطع البارودي أن يكون شاعرَ بكاء ورثاء، حتى في الموضوعات التي لامسته، ولا بد أن نشير إلى أن كثيراً من الطُّرَف التي تُروى عن البارودي هي ليست في أشعاره أو في الكتب التي تناولت شعره، وقد اختلق الناس على لسانه طُرَفاً كثيرة لشدّة طرافة شخصيته لا يَحسُنُ أن تُدوَّنَ لأكثر

من سـبب، منها أننا نرى الطُّرَفَ مُـختلقـة، وأحياناً تصلُ إلى مستوى دُونَ مُستوى البارودي، وتقتربُ من مستوى الأشعار التي صيغَتْ على لسـانه، وهي ليسـت له، وتندرج تحت باب الهجائيات.

فـنُّـهُ الشِّعريّ

قال سـامر: يرى البـاروديّ أنّ الشـعر موهبـة، ويقوم على الأصالـة والسـليقة، بعيـداً عن التصنـع والتكلف، وقـد أتقنَ شـاعرُنا اللغة العربية وعلومها وشـعرها، وتتلمـذ على أيدي أسـاتذة اللغـة العربية، فارتبـط بالتراث، وكان مولعـاً بمعرفة أسرار اللغة العربية، وقد أشار في حديث له إلى أنه مولع باللغة العربيـة، إضافةً إلى ذلـك، لم تُبعدْهُ مهنـةُ الطب عن مجتمعه وعـن الثقافة الحياتية العامة التي اكتسـبها مـن المجتمع ومن تجاربه التي عاشها وقصصه مع المرضى الذين عالجهم، وقد فضّلَ الشِّعرَ القديم، ورأى أن الشعراء القدماء أبدعوا وأحسنوا لأنهم تقيّدوا بشروط، ونظرَ نظرةً موضوعية، فهو مع التجديد

فـي المعاني شـريطة الحفاظ على عمود الشـعر، كما بيّنَ من خلال الشـعر تجربته التي عاشـها، فعبّـر عنها بصدق أخلاقي فلسـفي وفني، كما صوّر لنا مـن خلال نصوصه معاناته، فمن يقرأ شعره يعلم تفاصيل حياته وما مر به من تجارب وأحداث صقلت شـخصيته. إنّ الشاعر الحقيقي هو الذي ينقل تجربته الحيّـة بصـدق فنـي واقعـي، والبـارودي مثـالٌ حيّ للشـاعر المتجدد دائماً وأبداً. يتجلى طابع الحوار في غالبية نصوصه، وقد لمسـنا في شـعره القصـص اللطيفة والمشـاهد التي فيها روح الحيوية والحرارة التي تبعد السأم.

تبسمت الأمُّ قائلةً: كم أنا فخورةٌ بك يا ولدي! على الرغم مـن صغر سـنك، فقـد اسـتفدت مـن معلوماتنـا، وأفدتنا من معلوماتك التي قرأتها وجمعتها، وهذا شأن الطالب الدؤوب الذي يُسخِّرُ وقته للقراءة والمطالعة والبحث.

قال الأب: تُوفّـيَ وجيه البارودي عام ١٩٩٦م، تاركاً وراءه إرثـاً شـعرياً كبيـراً بمعانيه، وتاريخـاً حافلاً بالحـب والعطاء لمدينته التي عشـقها. هذه هـي حياة الراحل الطبيب الشـاعر وجيه البارودي الغنية بجناحَين: جناح الشـعر وجناح الطب.

لقد سما الشاعر في سماء الشعر الأصيل مُتمسّكاً بالتراث والأصالة وحياةٍ قضاها في خدمة الناس وإدخال الفرح على قلوب معارفه جميعاً بطبه وشعره. لقد حارب بالكلمة المظاهر السلبية والتقاليد التي باتت تُشكّلُ قيوداً، وجمع بين خفة الظل والالتزام الأخلاقي والوجداني والوطني، ويُعدّ من أبرز شعراء الغزل والنقد الاجتماعي الذي حمل في طيّاته السخرية من واقع عاش فيه، هادفاً إلى الإصلاح والتغيير.

نأمل أن نكون يا بني قد قدّمنا شيئاً جديداً ومفيداً عن شاعرنا وجيه البارودي الذي كان مدرسةً في الحب، ومدرسةً في الطب، وصاحبَ سلوك انفعالي لا يجاريه فيه أحد، فهو سيّدُ العُشّاق كما يقول عن نفسه. جمع المتناقضات في شخصية متعددة. مرح يحب الدعابة، ومتمرد يحب التغيير، ومحب يعطي بلا مقابل، وطبيب يداوي بلا نقود، وشاعر يحب ويتمرد ويتغزل، ويتكلم بلسان العصر مُجدّداً في شعره. طوّعَ مهنته لخدمة شعره، كما طوّعَ اللفظ لخدمة المعنى، وكانت صوره مبتكرةً من علمه وعمله اليومي. أثرُ المهنة والثقافة ظاهرٌ في شعره. نستدلُّ من خلال شعره على مهنته، وأنه مثقف كبير

نفـخ من روحه في ألفاظه ومصطلحاتـه، فأبعدها عن العلمية لتصـبَّ في أدبه بـكل حيوية ونضـارة، فباتـت المصطلحات العلمية منسـجمةً ضمن نسـيج نصِّـه، وقد شـحنَـها بعواطفه وانفعالاتـه الخاصة بتعابير شـعبية مُوشّـحة بـروح عجيبة مع المحافظة على فصاحة اللغة.

❊❊❊

المصادر والمراجع

١ - أباظـة: نـزار - ومحمد ريـاض المالح - إتمـام الأعلام (ذيل لكتـاب الأعلام لخير الديـن الزركلي) - دار صـادر - بيروت - ط١ - ١٩٩٩م.

٢ - الأصفر، عبد الرزاق: موقع نت www.poetsgate.com

٣- البارودي، وجيه: ديوان «سيّد العُشّاق».

٤ - البارودي، وجيه: الموسوعة العربية - arab-ency.com.sy.

٥ - تللو، أنس: جريدة الوطن - وجيه البارودي الطبيب والشـاعر الإنساني - ٧/ ٨/ ٢٠١٨م.

٦ - الثـورة - وجيـه البـارودي رحلة عطـاء فـي الأدب والطب - السبت ١٥-٢-٢٠١٤م.

٧- الجبوري، كامل سلمان: معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى سنة ٢٠٠٢م - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ٢٠٠٣م - ج٦.

٨- الجندي، أدهم: تحفة الزمن بترتيب تراجم أعلام الأدب والفن - الناشر دار المقتبس - بيروت - ط١- ٢٠١٥م.

٩- الحريري، باسل عمر: الدكتور الشاعر وجيه عبد الحسيب البارودي - التاريخ السوري المعاصر- ١٩٩٦م.

١٠- حلاس، نجاح: صحيفة العروبة - وجيه البارودي شاعر الحب والمرأة - العدد ٢٦ - ٢٠١٤ شباط.

١١- حيدر، نضال: جريدة الوطن - ١١/ ٥/ ٢٠١٥م.

١٢- ديب، أسامة: جريدة النور - وجيه البارودي ابتكار وتقليد - العدد ٦٩٣ - ٢٠/ ٨/ ٢٠١٨.

١٣- سلوم، رشا: وجيه البارودي شاعر الحب والحياة - الثورة أون لاين - ٢٤ آب ٢٠٢٠م.

١٤- سلوم، درغام: مجلة كفربو الثقافية مجلة إلكترونية - الطبيب الشاعر وجيه البارودي غزله وفنه - العدد ٢٦ شباط - ٢٠١٤م.

١٥- الشامي، سليم: الفداء - ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٢م.

١٦- عوض، آلاء: وجيه البارودي الطب والشعر والأخلاق - مركز حرمون للدراسات المعاصرة - ٧ ديسمبر ٢٠١٦م.

١٧- قنباز، وليد: الفداء ٢٥/ ٦/ ٢٠٠١م.

١٨- قيطـاز، محمد عدنان: منتديات سـتار تايمز، أرشـيف أدباء وشعراء ومطبوعات - وجيه البارودي من خلال الصحافة الأدبية.

١٩- مجلة جهينـة: وجيه البارودي والعاصـي والنواعير علامات مدينة حماة - العدد الخامس - ١/ ١٠/ ٢٠٠٥م.

٢٠- محمـد، أحمـد علي: شـعرية الصـورة عند وجيـه البارودي - في الشـعرية (دراسـات نصية في الأدب العربي الحديث - وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب).

٢١- مـروة، إسـماعيل: حـوار مـع الشـاعر - جريـدة الثـورة - العدد٧٨٧٢.

٢٢- المعرفة نت . www.marefa.org

٢٣- الموسوعة العربية: أعلام ومشاهير - المجلد الرابع.

❊❊❊

الـمُحتوى

* اسمُهُ وحياتُه ٧
* شخصيّتُه ١٣
* مكانتُهُ وتكريـمُه ١٧
* أصدقاؤُه ١٩
* مهنةُ الطّبّ ٢٣
* مُؤلّفاتُهُ الشِّعريّة ٢٥
* أغراضُهُ الشِّعريّة ٢٧
* الاعتزازُ بالذات ٣٣
* شِعرُهُ الاجتماعيّ ٣٧
* الـحُبُّ والغزل ٤٧
* شِعرُهُ الواقعيّ ٥٣
* آراءُ مُعاصريه ٥٧
* أسلوبُ الشاعر ٦١
* البارودي وخفّةُ الظِّلّ ٦٣
* فنُّهُ الشِّعريّ ٦٥
* الـمصادر والـمراجع ٦٩

ريما إسماعيل الدياب

* دكتورة في قسم اللغة العربية/ كلية الآداب الرابعة/ جامعة دمشق، وفي جامعة قاسيون الخاصة.

* لها ثلاثة كتب مطبوعة:

١ - المنحى الأسطوريّ في الشِّعر العبّاسيّ - دار العراب.

٢ - بنية القصيدة في شعر ابن حيوس الدمشقيّ - الهيئة العامّة السُّورية للكتاب.

٣- الاستشرافُ في أدب الخيال العلميّ - اتحاد الكُتّاب العرب.

* لها كثيرٌ من الأبحاث المنشورة في مجلات عربية مُحكّمة .

صدرَ من سلسلة « أعلام ومبدعون »

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	حنّا مينة	د. شوقي المعري
٢	سهيل عرفة	محمود يوسف
٣	محمد الفراتي	أسعد الديري
٤	عزيزة هارون	عيسى فتّوح
٥	جودت الهاشمي	د. هشام حلاق
٦	تيسير السعدي	وفيق يوسف
٧	أمين بن عبد العزيز الخياط	أحمد المفتي
٨	مسعود بوبو	د. محمد قاسم
٩	عبد الكريم اليافي	جمانة نعمان
١٠	النهضوي الزهراوي	خليل بيطار
١١	محمد وليد مارديني	إيمان ماديني
١٢	عبد الرحمن الكواكبي	محمود يوسف
١٣	نديم محمد	منذر يحيى عيسى
١٤	قمر كيلاني	لينا كيلاني
١٥	محمد الماغوط	ناظم مهنا
١٦	سامي الدروبي	بثينة الخير
١٧	الفراهيدي	بيان الصفدي
١٨	رياض الصالح الحسين	نذير جعفر
١٩	زكي الأرسوزي	إسماعيل الملحم
٢٠	رضا سعيد	أحمد بوبس
٢١	عبد السلام العجيلي	د. علياء الداية
٢٢	فاخر عاقل	ديب علي حسن
٢٣	أبو خليل القباني	هناء أبو أسعد
٢٤	فؤاد الشايب	عيسى فتوح
٢٥	صدقي إسماعيل	محمود يوسف

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢٦	عيسى عصفور	مطيع حمزة
٢٧	بدر شاكر السيّاب	بيان الصفدي
٢٨	ممدوح عدوان	ناظم مهنا
٢٩	هاني الراهب	حسام الدين خضور
٣٠	صياح جهيم	موفق نادر
٣١	ممتاز البحرة	رامز حاج حسين
٣٢	شاعر الشام خليل مردم	سيف الدين القنطار
٣٣	عبد القادر عياش	سراج أحمد الجراد
٣٤	سعد الله ونوس	جوان جان
٣٥	حيدر يازجي	أريج بوادقجي
٣٦	نعيم اليافي	د. أحمد علي محمد
٣٧	سعيد حورانية	حسن م. يوسف
٣٨	وصفي القرنفلي	مصطفى الحسون
٣٩	سعد صائب	سراج أحمد الجراد
٤٠	ألفة الإدلبي	د. محمد العنيزان
٤١	محمد عمران	منصور حرب هنيدي
٤٢	محمد محفل	ناظم مهنا
٤٣	شكيب أرسلان	د. جمال أبو سمرة
٤٤	عبد الغني العطري	عيسى فتوح
٤٥	عبد الرزاق جعفر	سراج أحمد الجراد
٤٦	فاتح المدرس	حسن م. يوسف
٤٧	فريد الأطرش	د. فايز الداية
٤٨	نهاد قلعي	هناء أبو أسعد
٤٩	دلال حاتم	قحطان بيرقدار
٥٠	عبد الباسط الصوفي	د. جمال أبو سمرة
٥١	بندر عبد الحميد	بيان الصفدي
٥٢	نزيه الشهبندر	علي العقباني
٥٣	سعيد الأفغاني	د. محمد قاسم

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٥٤	عبد المعين الملوحي	ناظم مهنا
٥٥	نزار قبّاني	د. نزار بريك هنيدي
٥٦	سلامة عبيد	ضحى عبيد
٥٧	جان ألكسان	هناء أبو أسعد
٥٨	محمد كرد علي	سراج أحمد الجراد
٥٩	عمر البطش	أحمد بوبس
٦٠	رفاعة الطهطاوي	بيان الصفدي
٦١	وجيه البارودي	د. ريما الدياب

وجيه البارودي